محمود محمد شاكر

حارس الثقافة العربية الإسلامية

obeikandl.com

obeikandl.com

لأمر ما ـ ربما نكشف سره بعد قليل ـ يعتقد إن لم يكن يصر.. أغلب المثقفين على امتداد الوطن العربى، بل وفى العالم الإسلامى.. بأن ثقافة الأستاذ محمود محمد شاكر الإسلامية.. أزهرية محضة.

والحق أن هذا «الاعتقاد» أو حتى «الاصرار» قد تجاوز حدود الحديث فى المجالس الخاصة أو الندوات العامة.. ليصبح من الحقائق التى تعرف طريقها إلى الصفحات المكتوبة، والتى تتحول مع مضى الوقت إلى مصادر يرجع إليها الباحثين والدارسين.

فلم يصبح غريبًا ـ والأمر كذلك ـ أن يسجل بعض المتخصصين فى لساننا ـ العربى، أو بعض الباحثين فى فكرنا الإسلامى.. فى جرأة يحسدون عليها بأنه «الشيخ»، أو أنه «الأزهرى»[1].

وعلى الرغم من أن محمود شاكر أعلن مع التأكيد أن مسألة انتسابه إلى الأزهر وشيوخه.. شرفٌ لا يدعيه، وأنه وضّح هذه المسألة فى أكثر من مناسبة سواء فى كتبه أو دراساته أو ردوده أو تعقيباته[2] حتى إنه كاد يحلف بأيمان مغلظة بأنه من جيل المدارس المدنية، وليس من جيل الأزهر الشريف.

صحيح أن محمود شاكر تربطه بالأزهر صلات رحم وقربى.. تتجسد فى أمور، أولها: احترامه وتقديره لرسالة هذا المعهد العريق سواء فيما يؤديه للعقيدة والدين الإسلامى، أو للأدب واللغة العربية.. وهى خدمات لا تنمحى. وثانيها: انتسابه إلى والده فضيلة الشيخ محمد شاكر للأزهر حيث كان وكيلاً

للأزهر وواحدًا من علمائه الأفذاذ الأجلاء، وثالثهما: أن أغلب إنتاجه الفكرى.. منصرف إلى العقيدة والدين أو اللغة العربية وآدابها، سواء ما كان تأليفًا أو تحقيقًا أو قراءةً أو شرحًا للعديد من أمهات الكتب الإسلامية والأدبية واللغوية.

غير أن هذه الأمور وما يشابهها لا تفرض على المفكر ـ أى مفكر ـ أن يكون بالضرورة واحدًا من أبناء هذا المعهد العريق، أو حتى من الذين ثقفوا ثقافة أزهرية، وإن لم يكونوا أزهريين بتخرجهم من الأزهر.

فأكثرنا يعلم ـ مثلاً أن الكل يشترك فى احترام الأزهر كمعهد عريق له رسالة. وبعضنا يعلم أنه يحدث أن ينشأ أحدنا ويتربى فى بيئة أزهرية، ومع ذلك يسلك فى العلم والمعرفة مسالك أخرى غير تلك التى يسلكها من يمثلون هذه البيئة التى يعيش فيها، وبعضنا ـ أيضاً ـ يعلم أنه كثيرًا ما يحدث أن تختلف حقيقة التخصص الدراسى فى الجامعة مع طبيعة الإنتاج فى الحياة العملية. كأن نرى ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ أن عددًا من المفكرين فى الدين والعقيدة ـ على التخصيص ـ هم فى الأصل أطباء ومهندسين وعسكريين وفلكيين وقانونيين وجيولوجيين إلى آخر هذه المهن، التى تحول عنها أصحابها بعض الوقت أو حتى كل الوقت للاضطلاع برسالة الكتابة الإسلامية.

ومن المؤكد أن ما ينسحب على الآخرين.. ينسحب أيضًا على الأستاذ محمود محمد شاكر.

غير أنه ربما يكون لهؤلاء المتخصصين والدارسين.. بعضًا من العذر والتبرير فيما يعتقدون، ذلك لأن نظرة محمود محمد شاكر إلى الكون بما فيه من مكونات، وما يرتبط به من حقائق.. نظرة إسلامية أصيلة محضة. فى الإمكان تبينها بعد ذلك فيما نعرفه بالمنهج عند المفكر.. ذلك المنهج المتفرد المتميز الذى لا نستشعره عند محمود محمد شاكر حين يكتب فى العقيدة والدين فحسب، وإنما نستشعره أيضًا حين يكتب فى مجالات أخرى كالفن، والأدب، والنقد، والتاريخ، والسياسة، والاقتصاد، والاجتماع، والحضارة، وغيرها من مناحى الحياة وجوانبها.. تلك التى يتناولها بمنهج خاص، له ملامحه وسماته وضوابطه.

ومن هذه الزاوية يلقى الاعتقاد السائد بين المثقفين.. بأن ثقافة صاحب هذا المنهج أزهرية بعضاً من العذر والتبرير رغم ثبوت خطأ هذا الاعتقاد.

لكن قبل تأمل منهج محمود محمد شاكر فى تناوله للمادة الإسلامية، أو غيرها من المواد، وتطبيق هذا المنهج فيما يتاح لنا من كتاباته الكثيرة.. نقترب أكثر وأكثر من شخصية هذا المفكر الذى يعدّ مرجعًا حيًا للثقافة العربية والإسلامية.

فالملامح العامة لشخصية محمود محمد شاكر تقول إنه موقف صلب فى الثقافة العربية، ونمط شامخ فى ميدان الشعر، ومنهج متفرد فى تحقيق التراث، وخط مستقيم فى التفكير الاجتماعى، وأسلوب دقيق فى التعريب والترجمة هو بأجمعه فوق راحة اليد.. كتبٌ وأبحاثٌ ودراساتٌ وقصائدٌ كالمناجم.. التى ربما تسلم كنوزها جيل آخر أنفذ بصيرةً، وأشد عدلاً، وأكثر إنصافًا..

ولمعرفة تفاصيل ملامح هذه الشخصية[٣].. لنا أن نصحب هذه الشخصية منذ طفولتها.. لنلتقط من هذه الصفحات المتفرقات التى كتبها محمود محمد شاكر ـ إذا دعته الظروف فى كتبه وأبحاثه ومقالاته، فلم يكتب سيرته الذاتية حتى آخر عمره.. كل ما له صلة به كمفكر إسلامى. فنجد أنفسنا أمام قصة طويلة.. تبدأ فصولها بظروف نشأته الأولى فى بيت علم وفضل فالوالد وكيلاً للأزهر الشريف، والشقيق الأكبر من العلماء الأزهريين، والمنزل منتدى لأهل العلم والثقافة والأدب والسياسة. والفتى كان مولعًا بالرياضيات حتى أنه دخل القسم العلمى بمدرسة الخديوية الثانوية. ولكنه مع ذلك كان شغوفًا بالشعر، منهومًا بالأدب، كلفٌ بالتاريخ.. حتى إنه لما أنشئت الجامعة المصرية عام ١٩٢٥م، لم يستطع ولعه بالرياضيات أن يقاوم شغفه بالشعر والأدب والتاريخ بكلية الآداب بدلاً من الالتحاق بإحدى الكليات العملية التى تتماشى مع ولعه بالعلوم والرياضيات.. وكان قد فرغ منذ قليل من قراءة كتابى «الكامل للمبرد»، و«الحماسة لأبى تمام»، وكان قبل ذلك يحفظ المعلقات العشرة للشعراء الجاهليين، ويعرف الشعر الجاهلى معرفة تتيح له أن يعقد مقارنة بينه وبين الشعر

الأموى والشعر العباسى، فيكتشف بذوقه وحاسته.. البون الشاسع بين عصور الشعر الثلاثة، بل والأكثر أصبح لكل عصر عنده من العصور الثلاثة أشعاره التى لها مذاقها وطعمها وشذاها ورائحتها.

إذن فطبيعى والأمر كذلك ـ أن تكون الدراسة بكلية الآداب، وعلى وجه الخصوص قسم اللغة العربية.. متفقة مع طبيعة نفسه وسمات روحه.. لكن فجأة يحدث التحول الهائل فى حياته.. فى إحدى قاعات الدراسة، وخلاصة قصته.. أن أستاذه الدكتور طه حسين الذى كان سببًا فى التحاقه بالكلية.. كان يلقى محاضرات فى الشعر الجاهلى..على طلاب قسم اللغة العربية.. ذهب فيها إلى الشك فى صحة هذا الشعر، وأن هذا الشعر الجاهلى الذى كان يحفظه الفتى ويتذوقه، لا وجود له،هو شعر إسلامى وضعه الرواة المسلمون ونسبوه كذبًا وبهتانًا إلى العصر الجاهلى. ويأتيه صوت أستاذه المميز إلى أذنه، المحبب إلى نفسه ـ فى هذه المرة ـ دقّا إلى جانب الأذن. وتقتحم آراء الأستاذ رأس التلميذ.. لتستقر وقتاً بعده تتحول إلى مفرقعات تنفجر، ويكون الفتى نفسه أول ضحاياها، على الرغم من أنه حاول تدارك هذا الموقف، لدرجة أنه كذب عينيه وأذنيه ليصدق أستاذه.. بل وراح ينشد الهدوء والطمأنينة حتى على حساب حواسه التى تسمع وترى وتتذوق فبدأ يسأل عن صحة الشعر الجاهلى.. وهو ما يعرفه ويقتنع به. فراح يسأل أساتذة من المستشرقين فى مقدمتهم: «نالينو» و«جويدو».. وأساتذة من العرب فى مقدمتهم «أحمد تيمور باشا»، وزملاء نابهين فى مقدمتهم محمود الخضيرى.. لكن كل ما يسمعه من إجابات تؤكد صدق ما يعرف فيحاول أن يواجه أستاذه «مكرهاً.. فقد تربى هو وجيله.. على احترام من هو أكبر منه..». ويبدأ بالاستفسار، ثم بالتساؤل، وأخيرًا الجدل الحاد وتأخذ القضية بالنسبة له شكلاً جديدًا.. حيث يصبح هو فى طرف، والجامعة وما تلقنه لطلابها من معلومات مشكوك فيها فى الطرف الآخر، ويصبح الموقف أمامه: إما أن يبقى ويستمع إلى ما لا يحب أو ما لايقتنع، حتى ينجح ويضاف اسمه إلى قائمة من تقذف بهم الجامعة للحياة فى كل عام.. أو أن

يرفض الاستماع إلى مالا يحب أو مالا يقتنع ويسير فى طريق يراه أنه الحق، فيترك الجامعة فى منتصف الطريق.

ويختار الأمر الثانى..

وهكذا يصبح الدكتور طه حسين الذى كان سببًا فى دخول محمود محمد شاكر الجامعة، محطماً لكل القيود والعوائق التى وضعها أمام الفتى مديرها أحمد لطفى السيد.. يكون هو نفسه السبب فى عزوفه عن الجامعة بل وهجرته من مصر كلها.

وتمضى الأيام والليالى.. لعشر سنوات يتفقها الفتى من عمره.. دون استثمار اللهم إلا هذه القراءة التى أصبحت جزءاً من نفسه، وفجأة وكأنه كان على موعد مع معركة جديدة.. ينشر فى المقتطف عام ١٩٣٦م كتابًا هو «المتنبى»، وبعده بعام واحد نشر أستاذه الدكتور طه حسين كتابًا فى نفس الموضوع هو «مع المتنبى» عام ١٩٣٧م. ويكون من حق السابق فى التأليف إبداء رأى فى اللاحق. حيث يرى فى كتاب الدكتور طه حسين ما يثير حفيظته. فإن كان فى المعركة الأولى مع الدكتور طه حسين قد آثر الصمت والسلامة. إلا أنه فى هذه المعركة لن يستطيع الصمت ولن يؤثر السلامة، ويتحول رأى محمود شاكر فيما كتبه أستاذه طه حسين إلى عدد من المقالات فى صفحات جاحظة من البلاغ[٤] تُفسر تفسيرًا مغرضًا، ويحملونها أكثر مما تحتمل، وتتألب القوى الدخيلة للإيقاع بين الأستاذ وتلميذه.. وينتهى الأمر بأن تمحى من ذاكرة حياتنا الثقافية ما كتبه محمود محمد شاكر عن المتنبى، ويبقى كتاب «مع المتنبى» للدكتور طه حسين. ولا تتنبه الأجيال إلى أن هناك كتابٌ آخر عن المتنبى غير كتاب الدكتور طه حسين.. إلا بعد أن يعيد صاحبه طباعته بعد أربعين سنة من طبعته الأولى!

هل انتهت معاركه بهاتين المعركتين؟ بالقطع لا..فهو يخوض عداد من المعارك، منها: واحدة مع عبد العزيز باشا فهمى حول كتابه اللغة العربية بحروف لاتينية، وثانية مع أحمد أمين حول «تقارض المقالات بينه وبين الدكتور طه حسين»، وثالثة مع الدكتور زكى مبارك حول النقد وأساليبه، ورابعة مع سيد

قطب حول المذاهب الأدبية، وخامسة مع الدكتور لويس عوض حول الصراع بين الحضارتين العربية والأوربية فى ميادين الفكر والثقافة، إلى جانب عدد من المناوشات مع الأستاذ توفيق الحكيم، والدكتور عبد الرحمن بدوى، والدكتور زكى نجيب محمود، والدكتور على جواد الطاهر، والدكتور عبد العزيز المقالح.. إلى آخر هذه المعارك والمناوشات، التى فى واحدة منها يضار فى رزقه، ويهدد فى أمانه، ويهدر فى كرامته، وتضرب من حوله السدود والقيود، فيذوق كغيره من رهبان الفكر على مر التاريخ مرارة الحرمان من أشياء كثيرة.. فى مقدمتها الحرية، حيث يعاقب بلا ذنب، ويحاكم بلا قضاة، ويسجن بلا جريمة. ولا يعبأ سجانه بفكره أو علمه أو حتى شيخوخته، ويقضى سنوات العقوبة ويخرج ليلقى ألواناً جديدةً من الجحود والنكران.. تفرضها عليه قلة متعالمة من أصحاب الطغيان الأدبى المزيف، والعدم المنفوخ.. ويكون من الطبيعى والأمر كذلك أن تسأل عنه من ينبغى أن يعرفه فلا يعرفه، وتتقفى أخباره فى المناسبات والأحداث فلا تجده، وتقتفى أثره فى المؤتمرات والندوات فلا تراه، وتبحث عنه فى المجالس والمجامع والهيئات الثقافية فلا تجده.. هى باختصار عزلة تامة اشترك «هو» مع الآخرين فى ضربها حول نفسه، ويصبح كل ما يربطه بالعالم الخارجى.. كتابٌ يؤلفه أو يحققه يتداوله الخاصة فيما بينهم.

لكن على الرغم من هذه العزلة التى ضربها محمود محمد شاكر حول نفسه، وأسهمت ظروف كثيرة فى استبعاده عن حياة كان من الممكن أن يكون هو نجمها وفارسها وهى الحياة الثقافية.. أقول على الرغم من ذلك.. فقد ترك بصماته على صفحة حياتنا الثقافية فى مجالات كثيرة، فى مقدمتها: الشعر، والتراث والتفكير الاجتماعى، والترجمة.

ففى الشعر محمود محمد شاكر شاعر له من مقومات العبقرية الشىء الكثير، وشاعريته تأبى أن تنحصر فى هذا الإطار أو ذاك المذهب، فهو هو نفسه يستوحى الطبيعة من حوله، ويستلهم من المعانى الإنسانية كل ما هو جليل ونبيل، يعاونه فى ذلك ثراؤه اللغوى، ومعرفته بأسرار الجمال فى لغتنا العربية.. منذ اجتذبته عرائس الشعر العربى صبيًا، فالتزم بقواعد هذا الشعر فى الموسيقى والوزن والبناء

مع التطوير داخل نطاق الجزالة، ويظهر ذلك بوضوح فى قصائده ـ وعلى وجه الخصوص القصيدة الطويلة «اعصفى يا رياح» التى يستشعر قارئوها نفاذ بصيرة الشاعر إلى ما وراء المحسوسات، كما يستشعر التأمل فى ظواهر الطبيعة وإدراك ما بينها وبين النفوس البشرية فى علاقة غير منظورة.

كذلك نستشعر قدرته على التعبير عن نظرته إلى الإنسان والفن ـ فى «القوس العذراء» تلك التى غطت أبياتها معظم صفحات كتاب، فكانت ملحمة استطاع بها تصوير أعماق النفوس البشرية وإبراز المعانى. وغير ذلك العديد من القصائد التى من مجموعها تقدم لنا شاعراً من فحول شعراء العربية.

وفى ميدان تحقيق التراث.. أو القراءة والشرح.. له إسهاماته المتميزة.. فهو فى هذا الميدان أشبه بصياد الأصداف واللآلئ فى أعماق المحيط وقد بدأ هذا العمل.. الذى أضاف العديد من الكتب للمكتبة العربية ـ عام ١٩٥١م عند البدء فى قراءة كتاب «طبقات فحول الشعراء» لابن سلام الجمحى، ومن بعده «تفسير الطبرى» فى ستة عشر مجلدًا، «وتهذيب الآثار للطبرى» فى خمسة مجلدات، و«إمتاع الأسماع للمقريزى»، و«الوحشيات» لأبى تمام، و«شرح أشعار الهزليين» للسكرى.

ومحمود محمد شاكر فى ميدان تحقيق التراث.. يرفض فهم بعض الكتّاب للتراث. ويدلل على رفضه برأى له وجاهته.. وهو أن كلمة تراث أصبحت علامة ـ عند هؤلاء ـ على شىء منفصل عن أمتنا، مع أن تاريخنا يتصل ماضيه بحاضره. كما يرفض ما ينادى به الآخرون من الدعوة إلى غربلة التراث. ويصف ذلك بأنه تضليل للأمة، ويسجل حقيقة نعتز بها كعرب، وهى أن كفة المكتبة العربية ترجح إذا وضعت أمامها كفة تاريخ الإنسانية كلها.

وفى ميدان التفكير الاجتماعى.. نجد محمود محمد شاكر كاتبًا من الطراز الأول.. كاتبًا اجتماعيًا تشغله قضايا مجتمعه، وكاتبًا سياسيًا له مواقفه.. ولأن كتابته تخرج من القلب، فهى تجد طريقها إلى القلب أيضًا، ولأنه يفكر دهرًا قبل

أن يخط سطرا. فكتابته تتسم بالدقة والإحاطة مع الأمانة المتناهية، ولأنه فى أغلب الأحيان صامتاً. . فإنه حين يتكلم يصوب قذائف لا تخطئ الهدف. وحتى فى حالات صمته عن أحداث عصره، فإن ذلك الصمت يعدّ رأيًا سليماً فى هذه الأحداث. . هو دائماً وسط المعركة حتى فى أقصى حالات عزلته. . هو باختصار يتمتع بفضيلة اسمها الموضوعية وبخصلة اسمها الدقة.

وهو ـ إلى جانب ذلك فى تعامله مع أحداث عصره يستخدم عملة نادرة فى زماننا ـ هى الإخلاص ـ وليس ذنبًا له، ولا عذرًا للجيل الذى لا يعرفه، إذا كانت كتبه مجلدات، وأجزاؤها أسفار، وبحوثه دراسات تغطى صفحات كثيرة من مجلات عديدة لأكثر من خمسين عاماً مضت.

وقد يدرك القارئ ذلك عند قراءة مقالات محمود محمد شاكر فى مجلات وصحف «الدستور» و«الرسالة» و«الثقافة» و«المقتطف» و«البلاغ، التى لو جمعت فإنها ولاشك سوف تكون ثروة فكرية تضاف إلى آثاره الأدبية والفكرية بوجه عام، ولكن ما العمل والرجل الذى تجاوز السبعين ـ وقت نشر الكتاب فى عام ١٩٨٤م ـ لا يتقن فن الدعاية لنفسه.

ولعل سمات الكاتب وملامحه عند مفكرنا محمود محمد شاكر تظهر بوضوح فيما يقدمه من التراث القديم، فهو عندما يفعل ذلك يدير مناقشة بارعة مع الرواة والمؤرخين للثقافة العربية. . مناقشة تشد القارئ وتخطف انتباهه، وربما يكون ذلك هو السر الذى جعله فى مقدمة المحققين فى العالم العربى أو حتى على الأقل يجعله مختلفاً عن غيره ومتميزاً.

وفى ميدان الترجمة. . له إسهاماته المشكورة. . وإن كان هذا الجانب فى أعماله لا يعرفه الكثيرون، إلا أن واقع الحال يؤكد غير ذلك، فالثابت أن له العديد من الأعمال الخاصة بالترجمة. . يظهر ذلك بصورة واضحة فى كتابه «أباطيل وأثمار»، حيث بدت قدرته الفائقة فى مجال الترجمة، لكن جهده الضخم فى الترجمة كان فى مجال نقل للآداب العالمية فى أربعينيات هذا القرن فى مجلة المختار، تلك التى كانت تقوم مادتها على الأعمال الأجنبية بعد تعريبها

فى هذه المجلة التى أشرف على تحريرها فى فترة من فتراتها بدت قدرته فى ذلك، سواء فى اختياراته للموضوعات التى تنشر، أو فى مراجعته لترجمات الآخرين، أو فيما يترجمه هو. وهذه الفترة من حياته تحتاج إلى دراسة كاملة، ففيها ربما يكتشف الباحث أن محمود محمد شاكر كان أستاذاً فى هذا الفن لمترجمين برزوا بعد ذلك.

فى هذا المجال يمكن القول بأن محمود محمد شاكر قد أرسى قواعد وتقاليد جديدة للترجمة، لعل القارئ يتصور خلاصتها مما يقرأه، فيدرك مدى الدقة والأمانة التى يتمتع بها هذا المفكر، وكأنه يعلن فى كل صفحة أو فقرة أنه كمترجم لأعمال الغير، فهو مطالب بأن يعمل حساباً لكل كلمة، فهو يرتاد أرض هذا الغير ويجب ألا يخونه فيما يفكر ويعبر.

ومن قراءة مترجمات محمود محمد شاكر يدرك القارئ محصول هذا المترجم من الكلمات العربية ومشتقاتها. وينتهى إلى نتيجة مؤداها أن زيادة المحصول اللغوى للغة المترجم وليس للغة المؤلف فحسب.. يفيد الأصل كما يفيد الترجمة.

ولا يستطيع أى باحث أن يتجاهل ـ وهو فى صدد دراسة هذه الشخصية ـ إسهام محمود محمد شاكر فى التعليم، أو بمعنى أقرب الإشراف العلمى.. ومع أنه لم يسبق أن عمل فى أى وظيفة من وظائف التعليم، إلا أن بيته ملتقى للباحثين والدارسين فى مصر أو فى غيرها من البلاد العربية والإسلامية.. الكل يأتى ليستفيد من علم الرجل وفضله، ومكتبته تمد هؤلاء الدارسين بالعديد من المراجع والمصادر النادرة حتى أصبح مألوفاً أن تلتقى بباحث أو أكثر.. يعدون الرسالات الجامعية مسترشدين بتوجيهاته.

ولاستمرار توافد تلاميذه وأصدقائه ومريديه.. جعل هناك ضرورة لوجود واستمرار المناقشات، فى شتى النواحى حتى يتحول المكان إلى ما يشبه قاعة للدراسة فى جامعة للجميع.

لكن المؤسف حقّا، أن تستغل هذه الزيارات، ذات الهدف العلمى النبيل.. للنيل منه فى يوم من الأيام. وفات من ظن به السوء أن الرجل لا يضن بعلمه أو جهده أو كتبه على أحد، وأنه يفتح بيته للجميع.

ولعل فى ذكر هذه الحقيقة ـ التى يمكن أن يؤكدها أى إنسان بزيارة لبيت هذا المفكر ـ ردّا على القائلين بأنه اختار لنفسه سجنًا انفراديّا لعجزه عن التعامل مع الحياة الاجتماعية.

لم تكن عزلته التى أشار إليها فى كلمته يوم استقباله عضواً بمجمع الخالدين، فقد قال مخاطباً أعضاء مجمع الخالدين: «فأنتم أيها الرجال الأجلاء غير عامدين ولا متواطئين.. أخذتمونى على غرة، وقذفتم بى فى الموج، ذى التيار والزبد، وقلتم لى اسبح وما أنه بسابح، وأنى لمثلى أن يسبح وقد عاش حبيساً مغموراً أكثر من أربعين سنة، بين جدران من العزلة ضربتها على نفسى، وبين رفوف كالتوابيت من حولى فيها رجال (صموت) لا ينطقون ولا يتحركون إلا أن آذن لهم، وأذنى لهم: أن أمد يدى إلى أحدهم ضارعاً مستميحاً أسأله أن يتفضل علىّ بشىء من معروف يزيل شكى أو يرد عنى حيرتى..»[٥].

نقول: لم تكن عزلته هذه بسبب عجزه عن التعامل مع الحياة الاجتماعية، ولكن كانت عزلته لها أسباب ومسببات كرر تسجيلها فى أكثر من موضع من مؤلفاته. وشرَّفَ كاتب هذه السطور بأن ينبه إليها وإلى صاحبها محمود محمد شاكر.. هذا الكاتب العملاق وأحد الحرس القديم للثقافة العربية الأصيلة وكان ذلك فى مقالات متتالية بدأت عام ١٩٧٤م بتسجيل معركته مع الدكتور طه حسين حول كتاب «المتنبى»[٦]، واستمرت كمقالات بجريدة الأهرام حتى عام ١٩٨٣م. وكان من نتيجة هذا الجهد المتواضع إلى جوار جهود أخرى مشكورة.. أن تنبهت الأوساط الثقافية فى مصر ـ وطنه الذى عملت فيه قلة على حجب فكر وأعمال هذا الكاتب، وفرضت عليه عزلة للأسف هو ارتضاها وضربها حول نفسه ـ فيرشح لجائزة الدولة التقديرية، وهى أسمى تقدير تمنحه الدولة لعلمائها

ومفكريها، ثم اختياره عضواً بمجمع الخالدين. وقد عدّ كاتب هذه السطور هذين الإجراءين بالنسبة لهذا المفكر تصحيحين لذاكرتنا الثقافية.. التى أصابها نوع من الضعف.

ويكون التصحيح الثالث لذاكرتنا الثقافية، هو بترشيح الهيئات العلمية والثقافية لهذا المفكر للحصول على جائزة الملك فيصل السعودية العالمية، وقد لاقى هذا الترشيح قبولاً لدى الأشقاء السعوديين الذين يعرفون مكانة محمود محمد شاكر العلمية والفكرية. فكان فى مقدمة الحاصلين على الجائزة عن الأدب حتى إنه قد جاء فى حيثيات هذه الجائزة رأى لجنة التحكيم فى هذا المفكر الذى حصل على الجائزة فى الآداب وهو: «لقد أخذت اللجنة فى الاعتبار الآفاق العلمية الجادة التى ارتادها العلامة محمود محمد شاكر، ونظرت إلى ما كان من فضله على الدراسات العلمية والفكرية، وعلى الحياة الثقافية والتراث الإسلامى، ورأت فى مواقفه العامة وحياته وتحقيقاته ومؤلفاته الأخرى بأسلوبه الخاص ما يرتفع به إلى مستوى عال من التقدير».

وفى يوم تسليم الجائزة يلقى كلمة يشير فيها من بعيد إلى هذه العزلة التى عاشها فيقول: «لست أدرى كيف أستطيع أن أحمّل هذا اللسان العاجز عبئاً لم يحمل مثله قط، إذ أقف أول مرة في حياتى بين مثل هذا الحفل المحفوف بهيبة الملك وجلال العلم وأبهة الفضل، ثم أطالبه أن يبين عما يجيش فى صدرى من معان».

إلى أن يتقدم بالشكر قائلاً: «حتى وقفت مثل هذا الموقف باسطاً لسانى بالشكر ومجاهراً بما يوجبه علىّ عرفان الجميل وحسن الصنيع..».

وإذا كانت هذه مجرد إشارات وليست تفصيلات إلى محمود محمد شاكر وفكره. فهى إشارة إلى موقفه من الآخرين وموقف الآخرين منه، وإشارة أيضاً إلى الخطوط العريضة لإسهاماته الفكرية، كما أنها إشارة إلى هذه الملامح العامة لشخصيته بالقدر الذى تتطلبه فكرة الكتاب، فالسؤال الذى يطرح نفسه الآن: وماذا عن أسلوبه فى التفكير؟ وهو بعينه السؤال عن منهجه؟

وللبحث عن المنهج للعلامة محمود محمد شاكر.. علينا أن نتأمل معاً نظريته.. أو فكرته الإسلامية التى ينبنى عليها كل إنتاجه الفكرى، وهى نفس الفكرة التى ميزته عن غيره من الكتّاب والمفكرين، فجعلت له شخصيته المميزة. بعد ذلك علينا أن نتأمل انعكاس هذه النظرية أو الفكرة الإسلامية على إنتاجه الفكرى. فيكون ذلك انعكاسًا مثلاً على منهجه فى الثقافة أو فى استلهام التراث الإسلامى، أو فى الكتابة عن إنتاج شخصيات فى التاريخ الإسلامى، وغيرها من الموضوعات التى كونت فى مجموعها ذلك الإنتاج الفكرى لهذا العالم الجليل.

وبادئ ذى بدء ينبغى أن ننبه إلى أن هذه السمات العامة للمفكر الإسلامى الحقيقى. تلك التى يتصورها بعض مفكرينا فى نظريتهم للفكر الإسلامى بوجه عام[٦].. نجدها تنطبق تماماً على هذا المفكر.. ومنها:

● أن الإسلام يحرر شخصية المسلم من العبودية لغير الله فى قوله تعالى: ﴿تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾[٧] فالمسلم أمام هذا التوجيه الربانى الذى يتعلق بحقيقة عقائدية، يتبين فى نفس الوقت حقيقة أخرى وهى أنه حر، فليس عليه أن يخشى سوى الله سبحانه وتعالى. الأمر الذى يجعله يتعرف على موقف ذهنى له أهميته بالنسبة لتحصيل المعارف، وهو أن لا قداسة لأية فكرة متوارثة لا يؤمن بها. وبالتالى ففى مقدوره أن يتخلص من كل ما يمكن أن يسيطر على ذهنه من آراء لم يتحقق بعد من صحتها، وقيل له: إنها صحيحة. وهذا يعنى أنه يتهيأ لمواجهة موضوعات المعرفة المطروحة على بساط البحث دون ضغط أى أفكار أو معتقدات سائدة فى عصره.

● أن الإسلام يظل الحياة بشقيها فى قوله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝١٥ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[٨]. فهداية القرآن تشمل جوانب الحياة على اختلافها.. الحياة فى الدنيا والحياة فى الآخرة. وهذه السمه تنبه ذهن المفكر المسلم إلى معانٍ تصقل هذا الذهن وتوجهه إلى كسب قدرة أعلى فى مجال تحصيل المعانى والمنهج المناسب لتحصيلها.

● اقتران النظر بالعمل: حيث تميزت توجيهات الإسلام من أجل بناء الفرد باحترام التكامل بين حياة الفرد فى الدنيا وبين امتدادها فى الآخرة فى قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾[٩]. فالمفكر المسلم من خلال ممارسته للأركان الخمسة فى الإسلام، وأيضاً من خلال تطبيق الأحكام الشرعية على اختلافها. قد تبين أن ما يقوله وينطق به يجب أن يؤكده العمل، وأنه لا فاصل بين الناحيتين، ولا أولوية لناحية على الأخرى. أى لا أولوية للنظر على العمل أو العكس على نحو ما ينهجه الفكر غير الإسلامى.

وقد ترتب على ذلك أن المفكر المسلم تبين أصلاً من الأصول المنهجية التى أعانته على إصدار أحكامه فى صورة لها سمة التكامل، ذلك لأن ممارسة تطبيق الأحكام الشرعية كان يصدر فيه أولاً عن نص الحكم المنزّل (ناحية نظرية)، غير أن هذا التوجيه النظرى يحمل فى طياته توجيه إلى ممارسة العمل والتطبيق، فإذا المفكر المسلم يحرص على الاهتمام بالنظر إلى الواقع الخارجى من أجل تبين أثر تطبيق النص المنّزل. كما يربط بين ما تلقاه عن طريق العقل من خلال النص المنزّل، وأثر هذا التطبيق فى الظروف والملابسات المحيطة به.

● عالمية الدين: فى قوله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾[١٠] وقول الرسول ﷺ: «وأرسلت إلى الخلق كافة». هذه لها أثرها فى تهيئة نفس وفكر المسلم إلى مزيد من التحصيل، ذلك لأن الاطمئنان إلى أن ما ورد فى الكتاب والسنة هو للجميع.

إن عالمية الدين الإسلامى تؤكد الحقائق العامة، وتكشف في نفس الوقت عن عدم تعارضها مع ما يمكن أن يكون فى كل فرد من مميزات خاصة. أى أنها تعين المفكر على تبين فكرة التعميم والتجريد التى هى أساس كل قانون علمى.

● إعلاء شأن العلم: حيث إن ما ورد فى الكتاب الكريم والسنة النبوية الشريفة من نصوص يكشف بوضوح عن مكانة العلم فى الإسلام، وهذه المكانة تؤكد للمسلم ضرورة تحصيل العلم. فالعلم واجب فى الشرع الإسلامى، وقوله

سبحانه وتعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[١١].. يؤكد تكريم الإسلام للعلم والتعليم. فنزول أول سورة فى القرآن الكريم، تبين أن الإنسان خلق ليكون على علم بأمور الدنيا والآخرة. ونزول الآيات بعد ذلك التى تجعل تحصيل العلم واجبٌ، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[١٢] هدىً للمفكر المسلم على أن دينه يدعو دعوة صريحة إلى العلم والاستزادة منه. وهنا يكون المفكر متسقاً مع نفسه فكراً وعملاً.. نظريةً وتطبيق..

وإن كانت هذه السمات تؤدى إلى إيقاظ ذهن المسلم بوجه عام، فهى تؤدى أيضاً إلى أن يتبين المفكر مناهج تحصيل المعرفة.. فحين عرف المسلمون وتدبروا ما فى القرآن والسنه اهتدوا إلى الأسلوب أو المنهج. فمثلاً.. الإنسان لن يتيسر له استثمار هذه الكائنات التى سخرها الله جل جلاله. إلا إذا كان عارفاً بها وبالكثير من خصائصها معرفة تدقيق وتمحيص، وهذا كله يجعل المنهج بالنسبة للمفكر المسلم مطلباً ضروريًا. وقد هداه الله إلى معالم هذه المناهج التى يحتاج إليها للفكر والعلم. ومن القرآن حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾[١٣] فحيث تدبر وتأمل المفكر آى الذكر الحكيم فإنه واجد ـ بلا ريب ـ الأسلوب والمنهج الذى يحصّل المعارف.

❁❁❁

وتفكير محمود محمد شاكر ينطبق تماماً على هذه السمات، فهو حين يقدم لنا نظريته أو فكرته الإسلامية[١٤] نرى أنها تبدأ من حيث بدأ محمود محمد شاكر فى تحديد مميزات الثقافة.. تلك التى تنحصر فى رأيه فى العقائد والأخلاق والعادات والتقاليد والأفكار واللغة، غير أنه يرى أن هذه المميزات صحيحة من الناحية النظرية إلا أنها مبعثرة. لذلك فقد رأى بعض الغربيين ـ كما يذكر ـ أن يجمعها فى سياق واحد، فقالوا: «إن ثقافة الشعب ودين الشعب مظهران مختلفان لشىء واحد؛ لأن الثقافة فى جوهرها تجسيد لدين الشعب»، وقالوا أيضاً: «إن السير إلى الإيمان الدينى عن طريق الاجتذاب الثقافى ظاهرة طبيعية مقبولة».

ويعلق محمود محمد شاكر قائلاً على هذا التعبير: «بأنه تعبيرٌ صحيحٌ فى جوهره تجسيد لدين الشعب» فى إطار واحد ويجعل تمييز ثقافة من ثقافة واضحاً من خلال النظر فى أصول التدين ـ الذى هو فطرة فى طبيعة الإنسان ـ حامل الثقافة ومؤديها إلى من بعده».

وبعبارة أخرى يرى محمود محمد شاكر أن ثقافة كل شعب هى تراثه البعيد الجذور فى تاريخه، المنحدر مع أجياله ينقله خلف عن سلف، وهذا التراث يكون من أفكار ومبادئ يحملها أفراد الشعب على اختلاف طبقاتهم وطبائعهم فى زمن ما من حياتهم، ومن تطبيق هذه الأفكار والمبادئ حتى تصبح أسلوباً لحياة المجتمع المكوّن من هؤلاء الأفراد.

ويرى محمود محمد شاكر أن كلمة عمر بن الخطاب (رضى الله عنه): «الناس بأزمانهم أشبه منهم بآبائهم»، قد تضمنت تجربة هذا الخليفة العبقرى التى مر بها. فإنه حين انتقل من الجاهلية إلى الإسلام فى صدر شبابه، مارس ـ رضى الله عنه ـ هذا التحول الثقافى نفسه، ثم ولى الخلافة ورأى ناشئة جديدة من أبناء الصحابة لم تشهد الجاهلية (أى لم تشهد ثقافة المجتمع الجاهلى)، ولكنها نشأت فى مجتمع مسلم كل أفراده قد انتقلوا من ثقافة الجاهلية إلى ثقافة الإسلام، ثم رأى هذه الناشئة التى تلقت عنهم وتأثرت بهم، وهى تتحرك وتنمو وتطبق أفكار الإسلام الحى، لتنشئ مجتمعاً جديداً وإرثاً لمجتمع الصحابة، ورآه وهو يتميز من مجتمع الصحابة بعض التميز لكى يتهيأ بحركته وفورانه واندفاعه إلى إنشاء حضارة جديدة فى أرض العرب وسائر الشعوب التى دانت يومئذٍ بالإسلام ودخلت دخولاً تامّا فى ثقافته.

ويعلق محمود محمد شاكر على هذا، قائلاً: «فهذه الكلمة التى قالها عمر من أروع الكلمات الدالة على عمق النظر، وبعده فى حركة دين الإسلام وفى

نشأته، ثم فى انتشاره، ثم فى تحقيقه عن طريق ثقافه حضارة تسميها اليوم الحضارة الإسلامية بمفهومها التاريخى الواسع المتراحب».

وقد أراد محمود محمد شاكر بهذا الاستطراد التاريخى أن يكشف شيئاً من فكرة هؤلاء الغربيين السابقة: « إن ثقافة الشعب ودين الشعب مظهران لشىء واحد، وأن الثقافة فى جوهرها تجسيد لدين الشعب»، فدين الإسلام يزيد هذه الفكرة وضوحاً، لأنه هو الدين الوحيد فى هذه الدنيا الذى يشتمل على جميع الأصول التى تقوم الثقافات الإنسانية على بعضها دون جميعها، فإن الله سبحانه وتعالى أرسل رسوله ﷺ إلى الناس كافة، على اختلاف قبائلهم وشعوبهم، وعلى اختلاف ألسنتهم وألوانهم، وهيأ للجنس البشرى كله أن ينتقل به من فوضى الملل والعقائد إلى العادات والتقاليد، أى من فوضى الثقافات إلى ثقافة هى فى جوهرها قابلة لتصفية سائر الثقافات القديمة، ثم احتوائها لتكون ثقافة متعددة الوجوه على غير اختلاف فى الأصول».

ويفسر محمود محمد شاكر ذلك قائلاً: «إن الله سبحانه وتعالى قد ضمن كتابه الذى جاء للناس كافة، أصولاً جامعة للعناصر الحية التى تقوم عليها ثقافات البشر المختلفة من عهد أبينا آدم (عليه السلام) إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. وضمن هذا الكتاب، وضمن الحكمة التى هى سنة رسوله ﷺ جميع الاسباب التى تحرك الثقافة وتعدها للنمو المتجدد الذى يتيح لها إنشاء الحضارة المتميزة الشاملة».

ويواصل محمود محمد شاكر تفسير فكرته حيث يقول: «وذلك أن الله جل جلاله قد اصطفى لكلامه سبحانه اللسان العربى المبين فأنزل به كتاباً عربيّا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه هو كلام الله،وهو القرآن،واصطفى من البشر نبيّا عربى اللسان فأنزل على قلبه هذا الكتاب وآتى هذا النبى العربى الحكمة المبينة عما أجمله القرآن وآتاه جوامع الكلم الذى هو حديثه ـ صلوات الله عليه وسلامه ـ وسنته.واختار لتحقيق هذه الأصول التى اشتمل عليها كتابه،

واشتملت عليها سنة رسوله مجتمعاً عربيّا مستخلصًا مستصفى من المجتمع العربى الجاهلى، وهم أصحابه ﷺ، ثم وصفهم سبحانه وتعالى فى محكم كتابه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾(١٥) فحدد ذلك كأنهم فى معترك ثقافات العالم الذى عاصرته بقوله سبحانه وتعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾(١٦)..

كانت هذه الأمة العربية الجاهلية، أمة ذات ثقافة متحدة من عهد أبيهم إسماعيل بن إبراهيم (عليهما السلام)، وما كان إبراهيم ولا ولده إسماعيل يهوديّا ولا نصرانيّا، ولكن كان حنيفاً مسلماً. أى الحنفية التى طبقها أبناء إبراهيم واسماعيل قروناً طوالاً، وتداولها التغير والتبدل حتى انتهت إلى العصر الجاهلى الذى أظله الإسلام، ثم صارت تراثاً ثقافيّا لهذا المجتمع الجاهلى يعبر عنه أسلوب حياته عن نزول القرآن، فجاء الله بالإسلام لينفى من هذا التراث الحنيف كل ما دخله من الفساد والتغير على تطاول القرون وليتم مكارم أخلاق هذا المجتمع الوارث للثقافة الحنيفية؛ وليحمل هذا الجيل الذى اصطفاه من جيل الجاهلية أمانة حمل هذا الكتاب بقوة، وأمانة حمل السنة باقتدار وفهم، وأمانة تطبيقه فى مجتمع جديد، وأمانة تبليغه ذلك كله لأبنائهم ولسائر من يدين به من البشر من غيرهم؛ ليحملوه أيضاً ويبلغوه ويطبقوه فى مجتمع متجدد تتسع رقعته وتتجدد حاجاته زماناً بعد زمان».

ويوضح محمود محمد شاكر فى نظريته الإسلامية الأدوات التى اشتمل عليها الإسلام، وهى بعينها أدوات الحضارة، فيقول: «وهذا الدين قد انفرد بخصائص لم تكن قط فى ملة سبقته باشتماله على تفاصيل كل ما يحتاج إليه الجنس البشرى فى كل عصر وزمان. لم يقتصر على العقائد والعبادات وحدها، بل اشتمل على كل صغيرة وكبيرة فى حياة الفرد الخاصة، وعلى آدابه فى معاشرة الأهل والولد والعشرة والزوج والصديق والقريب والبعيد فى جميع معاملاته

الخاصة العامة، واشتملت على أصول ما يحتاج إليه فى تشريعه واقتصاده وسياسته وعلمه وفلسفته وحروبه وجهاده، وعلى أصل حياة الجماعة، وعلى روابط هذه الجماعة بسائر الجماعات التى تجاورها أو تهادنها أو تحاربها بكل شىء.. من ذلك هدى هو نص فى الكتاب والسنة، وهدى هو دليل عقلى للاستنباط من الكتاب والسنة، مع تجدد حاجة كل مجتمع إلى هدى يهتدى به حتى لا يخرج عن الطريق السوى، الذى اختاره الله لعباده الذين أسلموا له وآمنوا به وبرسوله ثم لم يرتابوا».

ويرى محمود محمد شاكر فى نظريته: «أن الدين الإسلامى فيه صلاح أمر الدنيا والآخرة فهو دين جامع. ومعنى هذا أن دين الإسلام قد ضمن لكل شعب يدين به عناصر جامعة شاملة للحياة الإنسانية تتضمن أصولاً جامعة فى الكتاب والسنة، يجب عليه أن يتحرى أفراده العمل بها فى ذوات أنفسهم ويجب عليه أيضاً أن يلتمس لكل ما يجد فى حياته ومعاملاته هدياً مستنبطاً من الكتاب والسنة، ويجب عليه أيضاً أن يلتمس فيها ضوابط تصحح طريق آدابه وعلومه وفنونه وأفكاره ومعارفه. وكذلك نرى أن ثقافة كل أمة مسلمة هى دينها بهذا المعنى الجامع لحقيقة هذا الدين الذى انفرد عن سائر الملل بخصائص لم تشاركه فيها ملة من قبل».

ويصل محمود محمد شاكر إلى قيمة اللغة العربية وعظمتها فيرى أن هذا الأمر كله لم يترك سدى يتناوله كل من دان بهذا الدين على اختلاف شعوبهم وألسنتهم بلا ضابط يضبطهم كلا.. فإن كتاب هذا الدين هو كلام الله الذى لا يتبدل فى نصه حرف واحد، والسنة المبينة لحمله بجوامع الكلم هى كلام رسوله الذى لا ينطق الهوى. بل «هو وحى يوحى». وقد قال ﷺ: (أوتيت الكتاب ومثله معه)، فهما بمنزلة واحدة فى وجوب الطاعة لهما والعمل بهما والاحتكام اليهما عند اختلاف المختلفين، وكلاهما جاء بلسان عربى مبين، فمن آمن بهما وبما جاء به فهو يعلم علم ضرورة أنه لا مفر له من أن يكون مقيدا بلفظ كلام الله سبحانه، ومقيداً بلفظ حديث رسوله ﷺ فى طلب الهدى منهما وفى استنباط المعانى والأفكار والمبادئ والأحكام من كليهما، وفى الاحتكام إلى نفس ألفاظهما عند الاختلاف.. كل ذلك واجب فى كل زمان ومكان.

وبهذه النظرية الإسلامية يحاول محمود محمد شاكر أن يرصد أوجه الفساد فى ثقافتنا العربية الاسلامية، ويضع لها طرقاً للخلاص، فيقول: «وإذن فاللغة التى تنزل بها كلام الله وجاء بها حديث رسول الله ﷺ هى الأصل الأول الذى لا يمكن أن ينفصل عن ديننا ولا عن ثقافتنا، وعن طريقها وحده يستطيع الفرد المسلم من أى جنس كان أن يتخذ من الأصول الجامعة فى هذا الدين نبراساً لنمو الأفكار والمبادئ عن طريق النظر والاستنباط من نصوص هدى الكتاب وهدى السنة، وعن طريقها أيضاً يتم الاحتكام إلى الكتاب والسنة عند اختلاف العقول فى نظرها واستنباطها، وعن طريقها أيضاً نستطيع أن نخلص الثقافة العربية الإسلامية التى نحن ورثتها من كل ما شابها أو خالطها، ونجلوها،ونحييها، ونحيى بها، ونجدد، ونتجدد بها.. ولا طريق لنا غير هذه اللغة المذهلة التى نحن ورثتها فإن لم نفعل، وإن لم نعرف طريقنا إلى إحياء هذه اللغة فى قلوبنا وألسنتنا وخواطرنا وبوادينا وبيوتنا ومدارسنا، فإن أقدامنا ستقودنا إلى طريق مهلكة وضياع».

ويستند محمود محمد شاكر فى رأيه هذا إلى الإمام الشافعى الذى أبان عن هذا المعنى أحسن إبانة فيما رواه الخطيب البغدادى عنه فى كتاب ـ الفقيه والمتفقه ـ قال: «لا يحل لأحد أن يفتى فى دين الله إلا رجلاً عارفاً بكتاب الله.. بناسخه ومنسوخه.. ومحكمه ومتشابهه.. وتأويله وتنزيله.. ومكيه ومدنييه.. ويكون بعد ذلك نصير بحديث رسول الله ﷺ وبالناسخ والمنسوخ فيه، ويعرف من الحديث مثل ما عرف من القرآن.. ويكون بصيراً باللغة، بصيراً بالشعر وما يحتاج إليه منه للسنة والقرآن ويستعمل مع هذا الإنصاف، ويكون بعد هذا مشرفاً (أى مطلعاً) على اختلاف أهل الأمصار وتكون له بعد هذا قريحة. فإذا كان هكذا فله أن يتكلم ويفتى فى الحلال والحرام، وإذا لم يكن هكذا فليس له أن يفتى.

ويرى محمود محمد شاكر أن كلام الإمام الشافعى خاص يراد به العام، حيث يقول: «ولا تحسبن أن هذا الكلام البارع الذى قاله الإمام الشافعى قاصراً على

الفتية فى الحلال والحرام، بل هو خاص يراد به العام. . كما يقول الأصوليين، فالذى قاله شرط لازم لكل ناظر فى كتاب الله وسنة رسوله، ولكل مهتدى بهديهما، ففيها كان أو فيلسوفاً، متكلماً أو أديباً أو كاتباً أو مؤرخاً، أو داعياً أو واعظاً، أو ما شئت من العلوم والفنون التى تجمعها كلمة (ثقافة) أو (حضارة).

ويقول محمود محمد شاكر استطراداً فى نظريته الإسلامية: «واللغة والشعر اللذان ذكرهما الشافعى، وجعلها شرطاً للناظر المتكلم فى كتاب الله وسنة رسوله. هى لغة العرب الجاهليين الذين تحداهم القرآن بلفظه، وفوض إليهم الحكم على أنه كلام مفارق لكلام البشر بهذا اللفظ العربى المبين، وأن هذه المفارقة التى فوض إليهم الحكم بها ظاهرة فى لفظ القرآن، وجعل هذه المفارقة هى القاضية عليه بأن يقولوا: إنه «كلام الله سبحانه» لا كلام نبيه ﷺ، وهى القاضية عليهم بأن يعلموا أنه معجزة النبى ﷺ، وأنه لا يؤمن أحدهم حتى يقر بأن القرآن هو كلام الله المنزّل من عنده، وأنه مبلغ هذا القرآن نبى مرسل أرسله إليهم بلسانهم، وجعل هذا شرط الإيمان بالله وبرسوله، ولم يجعل سائر معجزاته التى أوتيها كما أوتيها الأنبياء من قبل شرطاً بالتسليم بأن هذا الرجل نبى مرسل.

والشعر الذى جعل الشافعى البصر به شرطاً أيضاً للناظر والمتكلم فى كتاب الله وسنة رسوله، هو شعر هذه الجاهلية التى اختار الله من رجالها صفوة آمنت به لتحمل أمانة هذا الدين بلسانه العربى المبين لا على معنى المعرفة به، بل على معنى البعد النافذ فى إدراك وجوه الشعر المختلفة، لأن الشعر هو محصلة البيان الانسانى الذى منّ الله به على الإنسان فقال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾[١٧] فجمع سبحانه (القرآن) و(البيان) فى سياق واحد. لأن بيان القرآن هو المعجز لبيان الإنسان ومجرد التحدى ببيان القرآن، دال على أن هذه الجاهلية التى أظلها الإسلام قد بلغت أقصى حدود القدرة الإنسانية على البيان، ولذلك فوّض الله إليها أن تكون هى الحكم على أن بيان القرآن مقارن لبيان البشر، وأنه معجز للخلق جميعاً على اختلاف ألسنتهم، واختلاف القدرة المكنونة فى طبائعهم فى الإبانة عن أنفسهم فى كل زمان ومكان».

ويصل محمود محمد شاكر إلى قمة فكرته أو نظريته الإسلامية حيث يقول: «وإذن، فهذه اللغة الشريفة النبيلة التى كرمها الله بكلامه المنزّل من فوق سبعة أرقعة هى بلا ريب حاملة ديننا، وحاملة ميراثنا من ثقافة الأمة الإسلامية وحضارتها على امتداد أربعة عشر قرناً، وهى اللغة التى ينبغى أن نجدد حياتها، ونحييها على ألسنتا وأقلامنا بلا هوادة فى ذلك ونمحو بها أمية الشعوب العربية والإسلامية، ونرفع بها غشاوة الجهل عن جماهير الأمة المسلمة؛ لكى نستطيع أن نجدد بنقائها وصفائها ميراث ثقافتنا السابقة وحضارتنا الغابرة؛ ولكى نستطيع أن نجدد ثقافتنا مرة أخرى فى زماننا حتى نجتاز المرحلة الصعبة المرهقة العنيفة التى ينبغى أن نقطعها؛ حتى نبلغ الحد الفاصل بين الثقافة والحضارة، ونتمكن مرة أخرى من أن نسيطر بسلطانها على الفكر والعلم، وعلى هداية الأمة، وعلى عمارة الأرض، وعلى الصناعة والتجارة، وعلى كل أسباب القوة التى ترغم العالم مرة أخرى على أن يعترف لنا بحضارة مجددة شريفة لها الغلبة والسيادة. بلا بغى ولا عدوان، ولا إذلال ولا ابتزاز، ولا مهانة ولا تحقير، لمن يجاورنا أو يعايشنا أو يهادننا أو يعادينا».

ويرى محمود محمد شاكر أن الخطوة الأولى فى تحقيق نظريته الإسلامية. هى بإعادة النظر فى نظمنا التعليمية حيث يقول: ينبغى أن نعيد النظر فى أساس التعليم كله من المدرسة الابتدائية إلى الجامعة كما فعلت كل أمم الحضارة الحديثة، وكما فعلت كل الحضارات السابقة؛ لكى نجدد حياة هذه اللغة الحاملة لتراث ثقافتنا العربية الاسلامية، والتى لا نستطيع بغيرها أن نجدد ثقافة عربية إسلامية تقطع الطريق إلى حضارة عربية إسلامية متجددة».

هذه خلاصة فكرة أو نظرية محمود محمد شاكر الإسلامية تلك التى نشرها عام ١٩٧٤م. ولكننا نراها منبثة فى أغلب كتاباته، أو هى بالتحديد نظريته العامة منذ بدأ ينشر حتى اليوم.

فمثلاً فى نظرته للثقافة العربية وما حل بها فى مقدمة كتابه «المتنبى»[١٨] نراه

ينبه إلى فساد حلّ بالأمة حيث يقول: «وأحسست أنى أنا والجيل الذى أنا منه، وهو جيل المدارس المصرية قد تم تفريغنا تفريغاً يكاد يكون كاملاً من ماضينا كله من علومه وآدابه وفنونه، وتم أيضاً هتك العلائق بيننا وبينه، وصار ما كان فى الماضى متكاملاً متماسكاً، فرقاً متفرقة مبعثرة تكاد تكون خالية عندنا من المعنى ومن الدلالة، ولأنه غير ممكن أن يظل الفارغ فارغاً أبداً فقد تم ملء هذا الفراغ بجديد من العلوم والآداب والفنون لا تمت إلى هذا الماضى بسبب، وإننا نستقبله استقبال الظامئ المحترق قطرات من الماء النمير المثلج».

وبعد أن يضع يده على جسم المأساة نراه يحدد أسبابها فى مقدمة المتنبى باستفاضة، من جملة ما قاله[١٩] عنها: « إنه بدأ عندنا فى مصر، قلب العالم الإسلامى والعربى، مع الطلائع الأولى لعهد محمد على بسيطرة القناصل الأوربية عليه وعلى دولته، وعلى بناء هذه الدولة كلها بالمشورة والتوجيه، ثم ارتفع إلى ذروته فى عهد حفيده إسماعيل بن إبراهيم بن محمد على الخديوى. حتى جاء الاحتلال الإنجليزى سنة ١٨٨٢م وبمجيئه سيطر الإنجليز سيطرة مباشرة على كل شىء وعلى التعليم خاصة، إلى أن جاء دنلوب فى ١٧ مارس ١٨٩٧م ليضع للأمة نظام التعليم المدمر الذى لا نزال نسير عليه مع الأسف إلى يومنا هذا».

ويؤصل لهذه المأساه، فيقول: «كان التمهيد لهذا العهد طويلاً متعدد الجوانب وكان قوامه إعداد أجيال من المبعوثين يعودون من أوربا ليكونوا قادة هذا التحول الرفيق العميق، ويراد لنا أن نبلغها مع تمادى الأيام، وكان الغزاة يقنعون يومئذٍ من هؤلاء المبعوثين بأن يعودوا إلى بلادهم ببضعة أفكار يرددونها ترديد الببغاوات، تتضمن الإعجاب المزهو ببعض مظاهر الحياة الأوربية، مقروناً بنقد بعض مظاهر الحياة فى بلادهم. . وبأن يكاشفوا متهم بأن ما أعجبوا به هو سر قوة الغزاة وغلبتهم، وأن الذى عندنا هو سر ضعفنا وانهيارنا، وقد وجدت ذلك ظاهرًا ممثلاً أحسن تمثيل عند رفاعة الطهطاوى وأشباهه.

ولكن لما جاء دنلوب كان أمر المبعوثين وحده لا يكفى، وأصبح الأمر محتاجاً إلى ما هو أكبر وأوسع انتشاراً. فكان الرأى أن تنشأ متعاقبة من تلاميذ المدارس فى البلاد، يرتبطون ارتباطاً وثيقاً بهذا التحول عن طريق تفريغهم تفريغاً كاملاً من ماضيهم كله، مع هتك أكثر العلائق التى تربطهم بهذا الماضى اجتماعيًا وثقافيًا ولغويًا وملء هذا الفراغ بالعلوم والآداب والفنون، ولكنها فنونهم هم، وآدابهم هم، وتاريخهم هم. . أعنى الغزاة».

ولذلك نجد محمود محمد شاكر وقد عرف المشكلة وأسبابها فإنه يضع أول خطوة فى الحل ـ كما رأينا فى نظريته، وهى النظر فى نظم التعليم التى وضعها المستعمر ومازالت سارية المفعول حتى اليوم.

ونجد صدى لهذه الفكرة الإسلامية عند محمود محمد شاكر. . فى نظرته إلى التاريخ وآدابنا العربية الإسلامية، فحين يكتب الدكتور لويس عوض سلسلة مقالات فى الأهرام يجمعها بعد ذلك فى كتاب «على هامش رسالة الغفران لأبى العلاء المعرى» يرد عليه وعلى غيره ممن على شاكلته فى سلسلة من المقالات يجمعها كتاب «أباطيل وأثمار»، موضحاً له المنهج الذى ينبغى أن يتبع فى تناول المادة الإسلامية بدلاً من هذا الخلط الذى قام به[١٩] ذلك قائلاً: «ولفظ المنهج يحتاج منى هنا إلى بعض الإبانة، وإن كنت لا أريد به الآن ما اصطلح عليه المتكلمون فى مثل هذا الشأن، بل أريد به ما قبل المنهج أى الأساس الذى لا يقوم المنهج إلا عليه. فهذا الذى سميته هنا. . منهجاً ينقسم إلى شطرين: شطر فى تناول المادة، وشطر فى معالجة التطبيق. . ويؤسفنى أن أكتب هذا فى مخاطبة أستاذ جامعى يقصد (الدكتور لويس عوض).

فشطر المادة يتطلب قبل كل شىء جمعها من مظانها على وجه الاستيعاب المتيسر، ثم تصنيف هذا المجموع، ثم تمحيص مفرداته تمحيصًا دقيقاً وذلك بتحليل أجزائها بدقة متناهية، وبمهارة وحذر، حتى يتيسر للدارس أن يرى ما هو

زيف جلّيا واضحاً، وما هو صحيح مستبيناً ظاهراً، بلا غفلة، وبلا هوى، وبلا تسرع. أما شطر التطبيق فيقتضى إعادة تركيب المادة بعد نف« زيفها وتمحيص جيدها باستيعاب أيضًا لكل احتمال للخطأ أو الهوى أو التسرع. ثم على الدارس أن يتحرى لكل حقيقة من الحقائق موضعها، لأن أخفى إساءة فى وضع إحدى الحقائق فى غير موضعها، خليق بأن يشوه عمود الصورة تشويهاً بالغ القبح والشناعة».

وعندما يطبق هذا المنهج على الشخصية موضع الدراسة أو النزاع، وهى شخصية أبى العلاء المعرى[٢٠] يقول: « فإذا اتخذنا شيخ المعرة مثلاً موضحاً، فدارسه ينبغى أن يكون مطبقاً لقراءة نصوصه جميعاً من نثر وشعر، لا من حيث لفظان مبهمان غامضان (نثراً) أو (شعراً)، بل من حيث تضمنها ألفاظاً دالة على المعانى وألفاظاً قد اختزنت على مر الدهور فى استعمالها وتطورها قدرا كبيرا من نبض اللغة ونمائها الأدبى والفكرى والعقلى، إلى كثير من الدلالات التى يعرفها الدارسون.. ثم من حيث هى ألفاظ قد حملت سمات مميزة من ضمير قائليها بالضرورة الملزمة، لأنه إنسان مبين عن نفسه فى هذه اللغة بما يسمى شعراً أو بما يسمى نثراً. وواضح جدّا بعد ذلك لمن يحسن أن يتأمل بعض التأمل أن هذا كله يقتضى أن يكون الدارس قد رحل رحلة طويلة فى آداب اللغة السابقة لعهد شيخ المعرة، فتدارس فيها الماضين من شعراء هذه اللغة وكتّابها مدارسة متقنة جادة غير هازلة، مستحوذة بالذكاء والتنبه، ومصقولة بحسن التمييز والتدبر؛ ليكون فى مأمن من اختلاط شىء منها بشىء مخالف له أو مناقض. وذلك لأن تراث كل لغة من اللغات، وإن كان وحدة، لا تكاد تتجزأ، إلا أن اختلاف الأزمنة والأمكنة يمنح كل نص وسماً بائناً من سواه، ويفيض عليه لوناً متفرداً من غيره. فهذا أمر كما ترى شديد المراس لمن لم يملك معرفته، فلا يهجم عليه بلا أداة، وبلا روية وبلا استعداد، وبلا فهم.

❁❁❁

وفى تناول التراث واستلهامه لمفكرنا محمود محمد شاكر أسلوبٌ ومنهج، لعلنا

هنا نستأنس بدراسة مفيدة كتبها الدكتور محمد أبو موسى حول كتاب «القوس العذراء» لمفكرنا.. فالدراسة[٢١] تقول «ولحديث الأستاذ محمود شاكر رؤية خاصة، ذات دلالات عميقة حين يتكلم عن أمته وحضارتها وتاريخها، وله معرفة متميزة بهذا التاريخ، وله تصوره الخاص أو تفرد لأحوال هذه الأمة بهداها وضلالها وعدلها وبغيها..».

وتقول[٢٢] الدراسة أيضًا: «انظر إلى محاولات استخراج التجربة الشعبية، والوحدة العنصرية، وأخيرًا البنيوية والأسلوبية، وقلّ أن تجد كاتبًا فى الأدب ونقده لم يحاول أن يتلمس أشباهًا لهذا الفكر فى تراثنا.

والصواب هو أن نستخرج من تراثنا ما تهدينا إليه عقولنا، وافق الذى عند غيرنا أم لم يوافق. المهم يوافق صريح عقولنا، وأن نرضاه ونستحسنه نحن بعيوننا وعقولنا، وأن نجد فيه كفاءة لحاجتنا الفكرية والأدبية وهذا مطلب عزيز، وإنما ينال بالصبر والمجاهد.

وقد تبقى الفكرة فى الكتب صامته خرساء، وتبقى على ذلك دهورًا حتى تلامس عقلاً حيًا صادقًا يحمل بين جنبيه هذه الهموم الشريفة فيستخرج منها أذكى ما يستخرج من المعانى والدلالات الحية.

وهذا المنهج الذى خطته (القوس العذراء) إحياء وبعث لطرائق الكلمة من أهل العلم فى تاريخ علومنا، ولا ريب فى أن لدينا تجارب غنية فى إبداع المعرفة وإنشاء العلوم يمكن أن تصطنع مسالكها كما اصطنعتها (القوس العذراء) بحدس حضارى نادر..».

●●●

ونفس هذه الفكرة الإسلامية نجد صداها أيضًا فيما عبر محمود محمد شاكر عن حالة الانهيار التى شهدتها الأمة الإسلامية[٢٣]، حين قال: «وفى أعقاب الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨م) انتفض هذا العالم الرحب وهو العالم العربى والعالم الإسلامى، وبدأت أول انتفاضة فى مصر فى مارس ١٩١٩م،

وتتابعت الانتفاضات على درجات مختلفة فى جميع بلاد العرب والإسلام. وحدثت الرجة العظمى، بالحرب التركية فى سنة ١٩٢٢م على عهد مصطفى كمال، ثم زلزل هذا العالم العربى والإسلامى حين ألغى الخلافة الإسلامية فى سنة ١٩٢٤م، وبإلغائها صار هذا العالم الذى كانت فيه الخلافة تجمعه أو تشده إليها بحبال واهية، ولكنها حبال على كل حال، صار خلائق مشتتة فى يم متلاطم تمد أيديها إلى شىء تتعلق به طلباً للنجاة، وخوفاً من الغرق، وكانت مصر خاصة والبلاد العربية عامة ملتقى أنظار العالم الإسلامى فى طلب النجاة والخوف من الغرق، ومع أنهم جميعا غرقى فى هذا أليم المتلاطم».

أو حين يرد على سؤال حول محنة اللغة العربية فى أرضها[٢٤] يقول: «أما محنة اللغة العربية فى زماننا. فإن مثله كالذى جاء فى هذه الكلمة البليغة من كلام إمامنا «مالك بن أنس» (رضى الله عنه) :(اشترى ما لا يريد، أوشك أن يبيع مايريد) بمعنى أنه يبلغ غاية الإفلاس، وسواء أكان السبب فى المحنة كلامنا فى إعداد المعلم أم كان فى انخفاض مستوى التعليم، فمن حيث نظرت وجدته سبباً واحداً، ولكنه نتيجة أيضاً لسبب سابق بعيد، وهو أن نظام التعليم عندنا مهما تغيرت برامجه فهو ملتزم التزاما شديداً بالأصل الذى بنى عليه فى مصر».

بل إن صدى هذه الفكرة نجده فى كتابات محمود محمد شاكر الاجتماعية منذ عام ١٩٤٠م أو حتى ما قبلها. وبالتحديد نتصفح معا أعداد الرسالة الاجتماعية فى سنتها الثامنة عام ١٩٤٠م لنقرأ معا حديثا عن المرأة والرجل[٢٥] يختمة قائلاً: «إن المرأة وهى تجنى أكثر الذنب حين يتصل أمرها ذلك بمصدر الأمومة فى غرائزها، فهى عندئذ مثال الإيثار والتضحية.. وهى صاحبة الفضائل كلها إذا أثيرت أمومتها وإحساسها بالمحافظة على النوع الإنسانى، وأما بغير ذلك، فهى المرأة بضعفها وأنوثتها وحاجتها إلى عون الرجل وتضحيته ورحمته، وليس للمرأة عمل إلا أن تعمل دائماً على أن تجعل الرجل فى عينيها تمام إنسانيتها، وبذلك نستصلح منه ما عسى أن يكون فاسداً، وتتم ما وقع إليها ناقصاً، ويبنى البيت ـ بينهما ـ على أساس من القوة الداعية للبقاء، فمن الرجل الرحمة والإخلاص، ومن المرأة الاحترام والعفاف».

وعن اللسان العربى وما أصابه من مصائب[٢٦] يقول: «إن اصحاب هذا اللسان العربى والناطقين به قد أصابتهم فى عصور متتابعة مصائب الجهل والغفلة والضعف فتحطمت عروش الدولة فى بلادهم كلها، وعدا عليها كل عاد من ذؤبان الأمم فاستذلوهم وأخذوهم، وفتكوا بهم وقد قضوا أوصالهم بالعنف والاستبداد تارة، وبالرفق والسياسة المدخبة تارة أخرى، ثم جاءت أيام بعثت من تحت الليل جمرات تفرقت ثم اجتمعت ثم استطار شررها فرمى فى كل هامدة بعض الحياة، وكذلك سارت أحلام النائمين لتحاسينها وتخاريجها وفنونها، فانتفضوا يطلبون تحقيق أنوار لياليهم فى سواد أيامهم، ولكنهم قاموا وهبّوا على غير نظام ولا تدبير ولا تعبئة، فانتشرت القوة الجديدة وتمزقت، فضعفت وأخفقت، ولم يكن منها ما كان يرجى لها من الغلبة والظفر والسيادة، وبقى الضعف فى هذه الأمم العربية هو عمادها وعماد أعمالها فى عصر من القوة الأوربية الطاغية يمتد ويتراحب ويساح فى الأرض كلها متدافعاً لا يقف ولا يغتر».

وعن العقل المصرى فى إطار العقول العالمية[٢٧] يقول: «لا أكاد أعرف شيئاً يمكن أن يسمى بالعقل المصرى أو العقل الإنجليزى أو العقل الفرنسى وهلم جرا، حتى يوضع فى كفة وحده أعدت له فى موازين العقول، وليس قيام المدنيات بأجزاذها على العقل حتى يمكن أن يقال إن العقل المصرى هو الذى استطاع أن يبقى خالداً، والمدنيات من حوله تفنى وتبيد. حقّا إن مصر ـ وغير مصر من الأمم التى كانت منزلا لمدنيات كثيرة متباينة قد احتفظت مع هذه المدنيات بأشياء امتازت بها، ولكن هذه الأشياء المميزة لم يكن مرد أكثرها إلى العقل، بل كان مردها إلى الطبائع التى أنشأتها إرادة الإقليم المسيطرة، على الطبائع الإنسانية وإلى العادات المتوارثة التى لم تقاومها هذه المدنيات مقاومة الحرب والإبادة، فلذلك بقيت هذه المميزات قائمة سائرة متعارفة، فيخيل لبعض من لم يغر إلى أعماق هذه المخلفات أنها ظواهر عقلية مع أن الحق غير ذلك».

وعن الفن المصرى[٢٨] يقول: «فالفن الفرعونى بغير شك ليس إلا نتاجًا

مركب من الوثنية المصرية الفرعونية، والطبيعة المصرية السوبه، وأثرها بيّن فى هذه الأبنية الضخمة بتماثيلها القريبة المتقنة المختلفة الدلالات على المعانى الدينية المصرية القديمة، وعلى الأصول الاجتماعية الخاضعة للوثنية الفرعونية التى كان يعيش عليها الشعب المصرى القديم، فهذه الديانة القديمة الجاهلية التى عابدت أوثانها وتقدست بعقائدها الباطلة، وخضعت لأساطيرها الرهيبة المخيفة، واستمدت تهاويلها من الإيمان بجبرية هذه الأوثان والعقول الطبيعية المختلفة كالشمس والنيل والتمساح وكذا وكذا. الغالبه هى التى أنتجت هذا الفن المصرى القديم بمعابده وتماثيله وكتابته الهيروغليفية المعبرة، أو من تعبير عن حقيقة المدد الفنى للآثار المصرية الفرعونية.

ويتساءل[٢٩] عن تمثال نهضة مصر قائلاً: «لا معنى له الآن فى مصر الإسلامية هل يستطيع الفنان الذى نحته وأقامه أن يعيد فى مصر تاريخ الوثنية الجاهلية، واجتماع الحضارة الفرعونية، وما يحيط بذلك من الأبنية الضخمة التى شادها أوائله ـ والتى كانت وحياً للفنان الفرعونى الذى عبد الشمس، وخضع لفرعون، وأقر له بكل معانى الربوبية، وآمن بالأباطيل والأساطير والتهاويل الدينية الوثنية الضخمة الهائلة المخيفة التى قذفها فى قلبه أبالسة عصره من الجبارين والطغاة؟! وهل يستطيع أن يجعل فى أرض مصر شعبا وثنيّا متعبداً للفراعنة والجبابرة بالخوف والرهبة والرعب حتى يتأثر بمعنى هذا الضرب من الفن المصرى القديم؟! ولكن أنى مصر الآن من الشعب من يستطيع أن يجد له معنى أو تأثيراً أو اهتزازاً إلا من القدم وأصل القدم؟! كلا.. كلا..كلا.

وعيد الهجرة النبوية[٣٠] يقول: «يا نبى الله، إن الإسلام قد قعد به أهله والزمن بالناس يعدو، والحياة فى العالم فكر يتحقق وهى عندنا حلم يتبدد. هذه أمتك تملأ الارض، ولكن قد فرغت قلوبها من الإيمان والإيمان، فى دينك قولٌ وعمل، كانت به المعجزة الإسلامية ولكنه عندنا قولٌ وجدل، تكون به الفرقة الجاهلية.. فاللهم هجرة كهجرة نبيك بالعزم والإيمان، اللهم جهاد كجهاده يجدد القلوب والأوطان».

وعن التبشير كحقيقة مؤلمة[٣١]، فيقول: «لايزال أهل الشرق مختلفين ما بقيت هذه الثقافة ـ يقصد الثقافات الإلزامية. تمد الرأى العام بأصحاب الآراء المختلفة والعقول المتباينة، ولن يصبح أمر هذا الشعب حتى يناهض ذلك كله بانصرافه إلى مدارسه ابتغاء توحيد ثقافته على أصل واحد. والأصل الضعيف فى ثقافة الشعب خير وأنفع من الأصول المتعددة القوية يألب ويوفق ويضم أشتاتاً ويقيم القلوب على الإخلاص والتفاهم.

وعن القرن العشرين والتيارات الفكرية[٣٢] يقول: «الزمن لا يكون هو العلة فى إنشاء الحضارة، وإنما تستجد الحضارة بروح الإنسانية وبالإنسانية الروحية، وإنما الزمن وحدوده تبع للإنسان الحى ولا يكون الإنسان تبعاً للزمن إلا حين تفقد الروح إنسانيتها العالية، وتفقد الإنسانية روحانيتها السامية، وترتد الحكمة والحضارة والتهذيب وجميع الفضائل إلى الحيوانية منزلة الغرائز وعلى سنتها وبقوانينها، ومن مدارجها النازلة إلى أغوار الحيوانية الفطرية».

وعن أعيادنا كمظاهر اجتماعية[٣٣] يقول: « وأعيادنا نحن تهتك الحجاب عن ضعفنا وذلتنا واستكانتنا لما نشعر به من الضعف والذلة وتبين عن ذهول الشعب عن نفسه وعن تاريخه وعن مجده وتعلقه بترهات الحياة، وقلة مبالاته بجمالها وانصرافه عن معرفة الأحزان الخالدة فى طبقاته بخلود الفقر والجهل والبلادة.

وعن الأزهر وإصلاحه ومعناه[٣٤]. .يقول: «فنحن نأسف إذ نرى الناس! ينظرون إلى الأزهر نظرة محدودة ضيقة لا تتراحب ولا تنفذ إلى حقيقة هذا التاريخ القائم فى أرض مصر. فهم يعدونه معهداً دينيّا، ويكون تفسير كلمة الدين هنا على غير الأصل الذى يعرف به معنى الدين فى حقيقة الفكرة الإسلامية التى ختم الله بها النبوات والأديان على هذه الارض، وهذا المعنى الجديد المعروف فى زماننا لهذه الكلمة كلمة الدين ليس إسلامّيا لأنه لا يلائم روح الإسهم فى شىء. . كلا، بل هو يهدم أعظم حقيقة حية أتى بها هذا الإسلام ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، وليجعل الذين آمنوا فوق الذين

كفروا إلى يوم القيامة، ويجعلهم الوارثين.. وهذه الحقيقة الحية الجميلة هى جعل كل عمل من أعمال الإنسان المسلم فى الحياة عبادة تقربه إلى الله..».

ويقول: «فالأزهر الإسلامى هو الذى تتمثل فيه حقيقة الإسلام أو يجب أن تتمثل فيه هذه الحقيقة، وتاريخه الماضى كان صورة صحيحة فى الحياة الاجتماعية الإسلامية بكل ألوانها وأنواعها مع ما كان قد عرض فيها من العيوب التى أدركت الشعوب الإسلامية، وجعلتها تنزل عن المرتبة الأولى التى كانت لها فى تاريخ الحضارات السالفة التى سبقت الحضارة الأوربية لهذا العصر، فلما هجمت علينا الحضارة الحديثة من أوربا بعواملها المختلفة وسياستها القوية التى تغلبت على كل سلطان فى الشرق ثم اندست العوامل الغربية فى الأمم الإسلامية، وعملت الأيدى العدوة فى تمزيق الروابط بين طبقات الشعب.. رجع الأزهر إلى غيلة يراد منه الطرف، وكذلك سار الناس ناحية وسار الأزهر ناحية أخرى، وكان ذلك أول البلاء على الأزهر وعلى الشعب نفسه!».

وتحت عنوان «إلى أين؟» يكتب محمود محمد شاكر مقالين على عددين متتاليين من جملة ما يقول[٣٥] فيهما: «كيف تدب الحياة فى أشياء الطبيعة التى تخيل للناس أوهامهم أنها موات؟ كيف تستيقظ الأرواح النائمة فى غار مظلم قد أطبقت على منافذه صخر صم من جبال الزمن؟ كيف تستقبل الناس ـ التى أحرقها الظمأ المتضرم ـ مددا من الغيث يهمى عليها بارداً عذباً ذلالاً سائغاً يترقرق؟ كيف.. وكيف؟».

وتحت عنوان: «ويلك آمن»[٣٦] يقول: «فإذا كان المؤمن قد قوى على تكاليف ضعيفة أن يعمل، فهو أقوى أن يشاركه إذا عجز أو عقبة الضعف الذى أصاره أن يرضى أن يخدم نفسه من كان أعلى يداً وأقوى قوة.

فهذه هى شريعة الروح الطاهرة التى تتعطر من نواحيها برائحة جنة الخلد، فانظر ما بينها وبين شرائع المعدة التى جعلت أحشاءها مقابر للضعفاء تأكل فيهم لتتسع بمعنى الجريمة الحيوانية، وتنقبض عن معنى الرحمة الإنسانية الإلهية: فهل

يمكن أن يتطهر العالم فيما يستقبل من أيامه على أساس هذا الهدى النورانى الذى جعل النظام الاجتماعى سمواً بالإنسان كله على مراتبه كلها؟ هل يمكن أن يفهم العالم حقيقة هذا التطهير التى أشار إليها رسول الله بقوله: (لا قدست ـ أى طهرت ـ أمة لا يؤخذ لضعيفها من قويها) ونبيك آمن أن وعد الله حق.

ويتساءل فى مقال آخر عنوانه: «أخوك أم الذئب؟»[٣٧] عن أحوال الشرق فيقول: «إن الشرق لا يؤتى ولا يغلب إلا من قبل أهله.. هذه هى القاعدة الأولى فى السياسة الاستعمارية الماضية، فعملت هذه السياسة على أن تنشر فى الشرق عقولاً قد انسلخت من شرقيتها، وانقلبت خلقا آخر، وقلوبا أنبتت من علائقها ولصقت بعلائق أخرى، وبهذه العقول المرتدة والعقول المنكسة استطاع الاستعمار أن يمد للشرق طريقاً محفوفاً بالكذب والضلال والفسوق، تخدعه عن الصراط السوى الذى يفضى به إلى ينبوع القوة الذى يتطهر به من شرور الماضى وأباطيل الحاضر، فيمتلك من سلطان روحه ما يستطيع به أن يهدم الأسوار التى ضربت عليه ويجتاز الخنادق التى خسفت حوله.

وعن الدعوة إلى اليقظة الشرقية العربية الإسلامية[٣٨] يقول: «والدعوة الجديدة إلى اليقظة الشرقية والعربية والإسلامية يجب أن تقوم على إثارة الشعب كله ليسأل كل أحد نفسه هذا السؤال: من أنا؟ فالعالم والأديب والشاعر والفيلسوف والعامل والصانع وأعضاء الأمة على اختلاف منازعهم ونوازعهم، يجب أن يشعروا فى قلوبهم بحاجتهم إلى هذا السؤال، وأنهم موكلون به لا يهدأون، وأنهم دائماً فى طريقهم إلى جمع الحقائق والجواب عن هذا السؤال الواحد».

وعن الحضارة المتبرجة[٣٩] يقول: «أعطيت هذه الحضارة الأوربية الحديثة أعظم روح من الفن كان فى الأرض من لدن آدم إلى يوم الناس هذا، وهذه الروح الفنية على سموها فى بعض نواحيها إلى غاية ما يتسامى إليه الخيال الفنى، تتساقط وتتدانى وتنحدر من جوانبها إلى أدنى ما يبتذل من الفن العامى المثير

لآثام الغرائز الحيوانية فى الإنسانية وبهذه الروح الفنية عالجت الحضارة الأوربية مشكلة الحياة السريعة الدانية المثقلة بأعباء العمل واتخذت لكل ملل راحة واستجماماً بلغت بهما غاية اللذة، التى تجعل الأعصاب المجهدة إذا آوت إليها كأنما تأوى إلى بيت ذى رونق وزخرف وعطر وضوء يغمغم ألحانا من الفن الموسيقى، فإذا بلغته استنامت بإجهادها على حشايا الخزى والديباج نعومة ولينا، ترسل فى الأعصاب لذة تمسح الجهد حتى يسكن ويخف ثم يتبدد».

❁❁❁

ونفس هذه الفكرة الإسلامية عند محمود محمد شاكر نجد صدى لها فى مقالاته التى تتضمنها أعداد السنة الخامسة عشرة والسادسة عشرة من مجلة الرسالة، والتى أذكر منها على سبيل المثال مقالات تحت عناوين: «مصر هى السودان»، و«الخيانة العظمى»، و«الجلاء الأعظم»، و«نحن العرب» و«هى الحرية»، و«أسد إفريقية»، و«شعب واحد وقضية واحدة»، و«هذه بلادنا»، و«لبيك يا فلسطين»، و«ثلاثة رجال»، و«إياكم والمهادنة»، وغيرها من المقالات التى سأعكف ـ بإذن الله ـ على دراستها فى مجال آخر.

وهذه المقالات وغيرها التى كتبها محمود محمد شاكر فى أربعينيات هذا القرن، تجعل المرء لا يندهش حين يكتشف أن محمود محمد شاكر.. هذا الرجل الذى لا يعرفه أكثر شباب هذا الجيل إلا محققاً للتراث أو على أكثر الحالات عالماً لغويّا أو عضواً بمجمع اللغة العربية. يضيف رؤية جديدة إلى الفكر السياسى حين أعلن فى ١٥ مايو ١٩٧٤[٤٠] بجامعة الملك عبد العزيز بعد حرب أكتوبر بشهور، أن للعرب قوة لا يستهان بها فى موازين القوى الدولية هى قوة تضاف إلى القوى العالمية الكبرى. ويومها نقلت وكالات الأنباء هذه الرؤية، ومن يومها أيضاً والأقلام تتناقلها. ومن جملة ما قاله فى هذه المحاضرة: «من العسير علىّ أن أضمن هذه الدقائق القليلة قدراً كافياً من الحديث عن أهم ما يدور فى العالم العربى والإسلامى، فإن هذا العالم قد مضى عليه أكثر من قرن كامل وهو يموج

بالحركة ويغلى بالفكر، حتى تجمعت فى هذه السنوات الأخيرة دلائل كثيرة على أن هذا العالم لن يهدأ؛ حتى يحتل مكانته التى يستحقها بتراثه العظيم، وبمساحته المترامية الأطراف، وبسكانه الذين يزيد عددهم على ثمانمئة مليون من البشر، وبما أودع الله فى أرضه من الذخائر والكنوز، ما استغل منها وما لم يستغل بعد، ولا يستطيع أحد أن يغمض عينيه عن قوة عالمنا هذا مرة أخرى، بعد المعركة التى هزت قواعد العالم الآخر.. العالم المتفوق الذى كان يستغل غفلتنا منذ أكثر من قرنين، استغلالاً لا شرف فيه ولا أمان ولا رحمة ولا إنسانية. ومع ذلك فواجبنا نحن اليوم أن نعلم علم اليقين أن هذه القوة التى فاجأت العالم وهزته هزا عنيفاً، لم يكن مصدرها تفوقنا نحن بحضارتنا الموروثة على هذا النوع الغريب من الحضارة، الممثلة فى القوى الحربية والصناعية والعلمية، التى يمتلك بزمامها العالم الذى نسميه عالم المستعمرين. بل كل الذى حدث هو أننا استطعنا أن نستفيد من حركة الصراع بين القوى الكبرى فى عالم الاستعمال، فاشترينا بأموالنا السلاح المتفوق من إحدى القوتين العظيمتين فى العالم لنواجه به سلاحاً متفوقاً أيضاً يستمده عدونا من القوة الأخرى، ثم بلغنا درجة كاملة من حسن الاستعداد للمعركة، ومن دقة التوقيت لساعة اللقاء.. هذه واحدة.

أما الأخرى فهى أننا استطعنا أيضًا بالجرأة والاتحاد أن نحبس عن عالم الاستعمار أهم مصدر من مصادر قوته وتفوقه، أو على الأصح أهم مصدر من المصادر التى يعتمد عليها تفوقه الحربى والصناعى وهو النفط، ومنذ عهد غير بعيد لم يكن فى قدرتنا أن نفعل هذا الذى فعلناه، ولا أغالى إذا قلت إنه كان يعدّ ضربًا من الأحلام التى لا مكان لها فى عالم الحقيقة..».

حقًا إن مفكرنا الإسلامى محمود محمد شاكر ـ رحمه الله ـ يعدّ مرجعًا حيًا للحضارة العربية الإسلامية، وحارسًا يقظًا للثقافة العربية الإسلامية.

الهوامش

(١) من المتخصصين د. لويس عوض فى مقدمة كتابة «رسالة على هامش الغفران»، ومن الباحثين د.عبد العزيز المقالح فى العدد ٢٨١ بتاريخ ١٩٨٢م من مجلة العربى، وغيرهما.

(٢) مراجع كتب «المتنبى» و«أباطيل وأثمار» و«فصل فى إعجاز القرآن الكريم»، ومقالات منها بالثقافة العدد ٦٠ لسنة ١٩٨٨م، وبالعربى فى العدد ٢٨٤ لسنة ١٩٨٢م محمود محمد شاكر.

(٣) راجع معركة كتاب «المتنبى» للأستاذ محمود محمد شاكر، وكتاب ـ معارك طه حسين الأدبية والفكرية ـ سامح كريم ـ من ص١٤٨ إلى ص١٥٧.

(٤) كلمة محمود محمد شاكر يوم استقباله بمجمع الخالدين.

(٥) معارك طه حسين الأدبية والفكرية ـ سامح كريم.

(٦) مدخل إلى الفكر الإسلامى ـ للدكتورة فوقية حسين.

(٧) سورة آل عمران ـ من الآية ٦٤.

(٨) سورة المائدة ـ من الآية ١٥، الآية ١٦

(٩) سورة البقرة ـ من الآية ٢٣٣.

(١٠) سورة الأعراف ـ من الآية ١٥٨

(١١) سورة العلق ـ الآيات ١ - ٥.

(١٢) سورة فاطر ـ من الآية ٢٨.

(١٣) سورة الفرقان ـ من الآية ٣٢.

(١٤) الثقافة ـ العدد العاشر يوليو ١٩٧٤م ـ محمود محمد شاكر من ص٧ إلى ص١٠.

(١٥) سورة البقرة ـ من الآية ١٤٣.

(١٦) سورة آل عمران ـ الآية ١١٠

(١٧) سورة الرحمن ـ الآيات ١ - ٤.

(١٨) المتنبى ـ السفر الأول ـ محمود محمد شاكر ص٢٧.

(١٩) المرجع نفسه ص٢٨.

(٢٠) أباطيل وأثمار ـ محمود محمد شاكر ص٢٤، ص٢٥.

(٢١) المرجع نفسه ص٢٦.

(٢٢) القوس العذراء وقراءة التراث ـ للدكتور محمد أبو موسى ص٣٩.

(٢٣) المرجع نفسه ص٥٢، ص٥٣.

(٢٤) مجلة الكاتب ـ العدد ٦٦٨ ـ مقال محمود محمد شاكر ـ ص٣١.

(٢٥) الأهرام ـ حوار السبت مع محمود محمد شاكر ـ كتبه سامح كريم.

(٢٦) الرسالة ـ سنة ١٩٤٠م ـ السنة الثامنة ـ من مقال محمود محمد شاكر ص١٠٣..

(٢٧) المرجع نفسه ص١٤٣.

(٢٨) المرجع نفسه ص١٨٢.

(٢٩) المرجع نفسه ص٢٥٩.

(٣٠) المرجع نفسه ص٢٦٠.

(٣١) المرجع نفسه ص٣٠٠.

(٣٢) المرجع نفسه ص٦٢١.

(٣٣) المرجع نفسه ص٦٦٢.

(٣٤) المرجع نفسه ص٧٠١.

(٣٥) المرجع نفسه ص١٠٠٧.

(٣٦) المرجع نفسه ص١٠٨٦.

(٣٧) المرجع نفسه ص١١٦١.

(٣٨) المرجع نفسه ص١١٨١.

(٣٩) المرجع نفسه ص١٢٥٢.

(٤٠) راجع مقال الطريق إلى حضارتنا ـ للأستاذ محمود محمد شاكر بالعدد العاشر لعام ١٩٧٤م من مجلة الثقافة.

obeikandl.com